

## الدور الحضاري للمراكز الكبرى بمنطقة توات وأثره في جنوب غرب إفريقيا

د. دبوب محمد  
جامعة أدرار

### ملخص :

ساهمت المراكز الكبرى في منطقة توات في إبراز وتأثير تلك الحواضر من خلال مساهمة السكان في نشر العلم والمعرفة في جنوب غرب إفريقيا، حيث كانت هذه المراكز المحطة العلمية والحضارية في بناء مؤسسات ثقافية ودينية في جنوب غرب إفريقيا، كان لها الدور الفعال في نشر الإسلام وثقافته في ربوع غرب إفريقيا. فالمراكز العلمية والحضارية لمنطقة توات تمثل الإشعاع الثقافي والحضاري في ترسيخ ثقافة الإسلام وحضارته في جُل القارة الإفريقية من خلال النشاط العلمي والحضاري بتوات.

### Resumé :

Les grands centres d'habitations de Touat ont apporté pour contribution dans le développement d'un mouvement culturel et spirituel, dont le rayonnement et les influences ne sont pas limitées au cadre strictement local de la région, mais ils ont débordé pour atteindre des contrées lointaines allant jusqu'à les cotes de l'Afrique du sud-Ouest, ceci n'était possible que grâce à des institutions scientifiques et culturelles dont le centre de gravité se trouve au Touat.

### مقدمة:

ساهمت المراكز الكبرى في دور حضاري هام، أثر في تكوين المجتمع التواتي الذي أصبح يحمل صفات جديدة، تتماشى مع تعاليم الإسلام في نشر أهدافها السامية في غرب إفريقيا، ولهذا فإن لهذه المراكز الدور الأساسي في نشر مبادئ الدين الإسلامي، واللغة العربية بصورة واسعة داخل إفريقيا الغربية، وبالتالي

انتشاره إلى باقي القارة، وانعكاس هذه الأدوار على جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إنه لمن الصعب تقريبا دراسة المجتمعات البشرية التي تعاقبت على جنوب غرب الصحراء دون الوقوف عند المجتمع التواتي، وبالأخص في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر الميلادي.

وإلى يومنا هذا يعد المجتمع التواتي من المجتمعات البدوية القليلة في الصحراء الذي استطاع أن ينفرد عن باقي المجتمعات الأخرى بنجاحه إلى حد ما في الاستفادة من اتصاله السكاني المتنوع سواء بالمجتمعات الإفريقية، وذلك من خلال العلاقات الحضارية التي احتفظت بها بعض القبائل العربية المكونة للمجتمع والدين الإسلامي الذي اعتنقه المجتمع التواتي بعد الفتوحات الإسلامية وما حققه من نجاحات في جميع الأصعدة.

تحتل المراكز الكبرى بمنطقة توات مكانة متميزة، بكونها جزء من الذاكرة الجماعية ومنتوج حضاري للأمة، لذا فإن حمايتها ودراستها ونقلها إلى الأجيال القادمة، يمثل استراتيجية في مجال كتابة التاريخ العلمي والثقافي للبلاد.

إن الهدف من هذه المراكز الكبرى هو إحياء التراث التاريخي، واسترجاع جزء من الكنوز التي تحتويها تلك المراكز للإشعاع العلمي والحضاري في مكتبات القصور والزوايا الصحراوية.

### 1- المراكز الكبرى بتوات:

تحتوي منطقة أدرار على عدة أقاليم تتمركز بها نسبة كبيرة من هذه المراكز، وقد عرفت في الماضي، بإقليم قورارة، توات، تيدكلت.

- إقليم قورارة: ويشمل حاليا دائرة تيميمون وبعض القصور التابعة لدوائر أخرى، وتعتبر من أهم المناطق لاحتوائها على مجموعة هامة من الخزائن التابعة للزوايا أو للأشخاص الذين ينتسبون إلى الأسر العلمية.

- إقليم توات: وعاصمتها تمنطيط وهي من أهم الأسواق التجارية خلال العصور الوسطى، ولذا كانت مقصدا لمجموعة من العلماء جعلوا منها إشعاعا علمي وحضاري وقاموا بالتدريس في مختلف العلوم الشرعية والنقلية مع تدوين بعض الشروحات، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الكريم المغيلي والشيخ العصنوني والشيخ الكنتي.

- إقليم تيدكلت: وتشمل الآن جزءا من ولاية أدرار المتمثلة في دائرة أولف وولاية تمنراست في دائرة عين صالح التي تحتوي هي الأخرى على مجموعة من الخزائن ذات الأهمية بمكان.

## 2- مواضيعها:

تعالج هذه المراكز موضوعات كثيرة، في مقدمتها الموضوعات الدينية كالفقه والتوحيد والعبادات والحديث وعلوم القرآن ثم علوم العربية والفلك وعلم المنطق وغيرها.

كما لعبت هذه الزوايا منذ تأسيسها خلال القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) دورا هاما في نشر العلوم الإسلامية وتعريب سكان هذه المنطقة، وهذا ما نراه في التأثير على جنوب غرب إفريقيا، مثل مدينة قاو، وتمبكتو، والسينغال الغربي.

هذه العوامل لم تقتصر على العامة والأسر الحاكمة، بل شملت رجال الفكر الذين مثلوا دورا مشرفا في تكوين المراكز الكبرى بمنطقة توات (أدرار حاليا). لقد أدى الاستقرار السياسي والاقتصادي إلى انتعاش الحياة العلمية والثقافية بتوات خاصة خلال القرن الخامس عشر الميلادي، إذ برع الكثير من علماء توات في علوم الدين واللغة العربية، وتركوا لنا العديد من المؤلفات الفقهية والأدبية التي توضح بشكل جلي ازدهار الحياة العلمية ونبوغ الكثيرين في ميدان تخصصهم ومواكبتهم للحياة الفكرية والثقافية التي كانت تعيشها مراكز العالم الإسلامي.

لقد كان التأثير بالغ الأهمية في السودان الغربي، من خلال هذه المراكز التي كانت لها الباع في نشر الإسلام، واللغة العربية في جل مدن غرب إفريقيا التي بواسطتها ساهمت هي الأخرى في نشر الإسلام في ربوع القارة الإفريقية.

### 3- الدور السياسي والاقتصادي:

إن التغيير الذي حدث في المجال الثقافي والديني في جنوب الصحراء، تبعته تغييرات في المجال السياسي والاقتصادي، فظهر دول جديدة، وانهيار أنظمة قديمة، وزيادة النمو الاقتصادي، جعل منطقة جنوب الصحراء، تنتقل إلى الدول المتطورة آنذاك، وهذا نتيجة التأثير القوي للحضارة العربية الإسلامية عن طريق ما حملته تجارة قبائل توات، وحتى تجار شمال إفريقيا، من مبادئ سامية وأخلاق نبيلة ومعاملات حسنة أساسها الدين الإسلامي. قامت في غرب إفريقيا ممالك إسلامية كبيرة، كانت لها مكانتها في تاريخ المنطقة الحضارية، وهذا كل من، مالي، وغانا وسنغاي، وبرنو، وكانم، وقد أثروا حكام هذه البلاد الإسلامية في حياة البلاد الإفريقية<sup>1</sup>، حيث حاولوا أن ينقلوا لبلادهم بعض الأنماط الحضارية التي إنتشرت في البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب، وتفيدنا بعض المصادر والمراجع التاريخية بأمتلة عديدة منها زيارة وفد مالي للمغرب في عام 1341م في عصر السلطان أبي الحسن المريني الذي حكم ما بين (1330-1351م) بهدف تقوية العلاقات بين المغرب ومالي، وعندما إنتهت زيارة الوفد للمغرب، جمع السلطان المالي عدداً من مهرة الصنائع والفقهاء للتوجه إلى مالي والمساهمة في النهضة العمرانية والحضارية بها، وكان على رأس تلك البعثة المعماري (أبو اسحاق الطويجي) الذي أشرف على بناء مسجد وقصر للملك المالي.

<sup>1</sup> عثمان سيد أحمد: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية بغرب إفريقيا، "مجلة دراسات إفريقية"، العدد 1، أبريل 1985، ص 27، 38.

وقد أسهمت البعثة المغربية في الحركة العمرانية العلمية في تلك البلاد وأجيزت على نشاطها هذا بإثني عشر ألف مقال من الذهب<sup>1</sup>.

ومع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، تحولت الدعوة الإسلامية إلى الجهاد، وانتقلت من مرحلة التبشير إلى مرحلة التقييد، فقامت أول حركة في أقصى الغرب الإفريقي في تلال " فوتا دجالون" Futadjallon عام 1725م.

ثم إنتقلت إلى الفوتاتورو 1775م، وكان هؤلاء المجاهدون هم النموذج الذي يحتذي به بالنسبة لمجاهدي القرن التاسع عشر الميلادي، الذين طالبوا بتأسيس الدولة الإسلامية الإفريقية الكبرى، ومن أهم هؤلاء الرجال "عثمان دان فوديو" في شمال نيجيريا والشيخ "حميدو" في ماكنيا، و"الحاج عمر" في الفوتاتودور<sup>2</sup>. ولقد بدأ الحاج عمر يطالب الحاكم "آل السباركي" في جبير، أكبر دويلات الهوسا إبان القرن الثامن عشر بإصلاح الدولة في ظل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، واعتبر هؤلاء الحكام أن مطالبة هذا الزعيم الإسلامي لهم بإصلاح الدولة، تدخل سافر في شؤونهم فبدؤوا في اضطهاده هو وأتباعه من المسلمين، خاصة ان دعوته بالإصلاح لاقت رواجاً من جانب قبائل الفولاني المسلمة، ومن جانب جموع فلاحي قبائل الهوسا الوثنية، التي كانت ترزخ تحت وطأة الضرائب الباهضة، ولما إشتدت وطأة الإضطهاد على "عثمان" أعلن الجهاد ضد حاكم دولة جبير، وسائر ملوك الهابي وسرعان ما تجمع حول "عثمان" أعداد كثيرة من المسلمين وحتى الوثنيين على السواء من خلال دعوته بدأ الوثنيون الدخول في الإسلام.

كانت دعوة "عثمان دان فوديو" صريحة فطالب سلاطين الهوسا، أن يتخذوا موقفاً متشدداً من الرعايا الوثنيين وإصلاح أنفسهم طبقاً للشريعة الإسلامية، وأتهم

<sup>1</sup> علي خاتم: الإسلام في السودان الغربي، آثاره السياسية والثقافية، مجلة دراسات إفريقية العدد 1، أبريل 1985، ص، ص 184، 199.

<sup>2</sup> سيد أحمد علي الناصري: الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية في غرب إفريقيا، مجلة الدارة، العدد 02، أوت 1897، ص، ص 182، 192.

"عثمان " هؤلاء السلاطين بالخروج عن الدين الإسلامي، وإمتدت دعوة الإصلاح التي قام بها، فأثرت على إقامة دويلات إسلامية إمتدت من مصب نهر السنغال غرباً حتى بحيرة تشاد شرقاً، واعتنق الوثنيون الدين الإسلامي<sup>1</sup>.  
بالفعل ساهم الإسلام في تطهير الحياة الثقافية من البدائية في التفكير، ونشر ثقافة إسلامية إفريقية، وهي تمثل أعلى ما أنتجته إفريقيا من التراث المحلي، وحتى العالمي.

#### 4- الدور الاجتماعي:

يعتبر الإسلام بالنسبة للوثنية الإفريقية صنو للراقي والتقدم والحضارة، وكان خطوة بناءة في تطور المجتمع الإفريقي في كثير من نواحيه وقد ساعد على نشوء ونمو كثير من المدن التجارية، وساهم في التقدم السياسي للدول والإمارات الإفريقية، وفي ظهور الحواضر الثقافية كما ذكرنا سابقاً.

ومن ثمة أظهر الإسلام تغييراً أساسياً في العادات والأخلاق، فقد تغيرت بإنتشار الإسلام العادات، مثل أكل اللحوم البشرية، وتقديم القرابين البشرية ووآد الأطفال، تلك العادات البالية الرذيلة التي كانت الطابع الأساسي للوثنية حيث كان الناس يعيشون عراة بلا ملابس ولا يغتسلون، ولكن مجيء الإسلام أصبحوا يرتدون ملابسهم ويغتسلون من أجل أداء فريضة الصلاة يومياً لأن الشريعة الإسلامية تتطلب منهم الطهارة، بل أنهم قد أصبحوا يباهون مواطنيهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النقية<sup>2</sup>.

وكان لمنع الإسلام شرب الخمر أثراً بارزاً في الاستقرار النفسي والصحي وفي إقبال الناس على أعمال الخير، والقيام بالواجبات، وقد حث الإسلام في المجال الاقتصادي على الكسب الحلال، فأقبل الناس على تعلم المهن الشريفة، وكان تحريم الإسلام للرقيق سبباً في صون القوى البشرية في إفريقيا حيث أتاح

<sup>1</sup> سيد أحمد علي الناصري : نفسه، ص، ص 199، 201.

<sup>2</sup> علي الخاتم : نفسه، ص، ص 369، 371.

سماحة الإسلام للأفريقيين أن يصبغوا بعقليتهم بعض النواحي الفقهية والسياسية والاجتماعية في الدين الإسلامي الحنيف<sup>1</sup>.

ومن ناحية النسب كانت السلطة الأمومية مهيمنة في المجتمع الوثني، وأن حبل النسب كان مرتبطاً بالأم ارتباطاً وثيقاً، ولما جاء الإسلام أعطى القرابة الدموية من جهة الأب قوة عظيمة قال الله عز وجل "أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله"<sup>2</sup>.

لقد أصبح للرجل دور هام في الحياة الاجتماعية، ومن جهة أخرى فقد حث الإسلام على صيانة حقوق المرأة، لقد كان الإفريقي الوثني يحمل اسمه واسم عائلته أمه حسب نظام السيطرة الأموي ثم أضيف إلى كل ذلك فيما بعد الإسلام الإسلامي، وتطور الأمر إلى الاحتفاظ بإسم القبيلة بدلاً من إسم الأم إلى جانب الإسم العربي الإسلامي وذلك بعد أن ازداد الدور الإقتصادي للرجل الذي قدمه الإسلام على المرأة مثل (إسماعيل نوري-أبو بكر تراوري، إن الإسم الثاني هو إسم القبيلة).

وقد بدأ تفكك النظام القبلي تدريجياً بعد دخول الإسلام إلى تلك البلاد وأتيحت الفرصة لتآخي القبائل في ظل هذا الدين، بعد قرون من الحروب القبلية القاسية الضروس، وكان من نتيجة ذلك أن قامت الدول الإفريقية الإسلامية على التجمع القبلي الديني مثل: مملكة مالي، في وادي النيجر الأعلى التي عرفت بتجمع قبائل الماندينغ "Mending" المسلمين، ومملكة كايور في السينغال التي اعتمدت على سواعد قبائل الولوف "Wolof"، الذين اعتنقوا الإسلام في القرن السابع عشر الميلادي.

<sup>1</sup> عبد الرحمن زكي: حركة الإصلاح الديني في غرب إفريقيا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد 03، مدريد 1965، ص ص 146، 157.

<sup>2</sup> قرآن كريم : سورة الأحزاب الآية رقم 5.

أما مملكة "غاو" في وادي النيجر الأوسط (جمهورية مالي) فقد كانت عبارة عن تجمع قبلي إسلامي لقبائل (السونراي)، وكذا الإمارات الإسلامية الأخرى في منطقة نيجيريا الشمالية، التي كانت رمز إتحاد (الهوسا).

وقد ساعد الإسلام على تكوين طبقة جديدة حلت محل طبقة الزعماء القبليين<sup>1</sup> وهذه الطبقة الجديدة هي طبقة المثقفين من رجال الدين، الذين عرفوا بإسم الأئمة وقاد بعض هؤلاء حركات سياسية واجتماعية ودينية إبان القرن التاسع عشر الميلادي.

ومنذ أن وطأت أقدام المستعمرين أرض إفريقيا الغربية<sup>2</sup> كان لبعض الأئمة دور بارز في إبقاء شعلة المقاومة حيث تولى بعضهم قيادتها، وإتسم بالنضال المستميت إذ قام الشيخ محمد الأمين وأحمد الشيخ وغيرهما في السينغال والحاج عمر وولده أحمد في وادي النيجر (السودان الغربي) والسلطان رتاج في تشاد وساموري توري في غينيا.

وقد تمتع المثقفون من الأئمة بإحترام الحكام إذ كان لهم التقدير والتبجيل وهذه المكانة تدل على تدين الشعب الإفريقي وإحترامه لفقهاءه وعلمائه، إذ أصبح هؤلاء العلماء لطبقة إجتماعية جديدة يملك الواحد منهم الأراضي الخصبة الواسعة التي يعمل فيها وفق نظام المشاركة، وقد تجسدت مؤثرات الإسلام بشكل جلي في الحياة اليومية في مملكة مالي، ومملكة غاو، فكان الأئمة العلماء والسلطان يتناولون طعامهم على مائدة البلاط، وكان حكام هاتين المملكتين يجمعونهم في الخطوب ويتبادلون معهم الرأي في تسيير شؤون الدولة في الأخطار التي تتعرض لها، ثم يتخذوا معاً التدابير اللازمة لحمايتها وحل مشاكلها، وكانت سلطة العلماء والأئمة، وهم ممثلوا الثقافة العربية، زمن السلطان محمد

<sup>1</sup> عثمان السيد إسماعيل: حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي، ومحمد أحمد به عبد الله المهدي وأثارهما (1757-1817م/1844-1884)، ص 67.

<sup>2</sup> عبد الفتاح مقلد الغنمي: الإسلام والتجانس الإجتماعي في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، العدد الأول، أبريل 1985، ص، ص 147، 179.

الحاج (مطلع القرن السادس عشر الميلادي) واسعة ولها كامل الصلاحيات في الحل والربط<sup>1</sup>.

وقد آمن الإفريقيون بما زعمه بعض رجال الدين من ارتباط نسبهم بالأسرة الهاشمية من الأدارسة، ولقد لقب هؤلاء بالأشراف ووصل الاعتقاد ببعض المجتمعات إلى أن كثرة الأشراف في بلد ما، تؤدي بأهله إلى الجنة، ووصف الرحالة الإنجليزية " جوزيف تومسون " صورة للحياة الاجتماعية في نيجيريا في كتابه " القبائل الإفريقية في الإمبراطورية البريطانية "، حيث تعرض إلى وصف يبين الأثر الإسلامي في المجتمع الإفريقي<sup>2</sup>.

بينما كانت تجارة الخمر والرقيق الأوربية تفتك بالقبائل الوثنية يقول " تومسون " الإنجليزي، بينما كانت الباخرة تسير في صعدا في مياه نهر النيجر، لم أجد إلا قليلاً من التغيير في المناظر التي شاهدها في ألمائتي ميل الأوليين، حيث تسود الوثنية والوحشية وتجارة الخمر في ازدهار كبير، ولكن لما تركت ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة، وألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية للسودان الأوسط (وادي النيجر الأدنى) لاحظت تحسناً مطرداً في المظهر الأخلاقي عند الأهليين، لقد إختفت الوحشية والوثنية وزالت تجارة الخمر إلى حد واضح، وصارت الملابس أكثر إحتماماً، وأصبحت النظافة عند القوم ظاهرة، ودلت مظاهرهم الخارجية على وقار زائد وأدب جم<sup>3</sup>.

وقد دل كل شيء على أن ثمة نواة لمبدأ أكثر رقي من المناطق التي تركتها ورائي وهكذا كان الإسلام يؤثر تأثيراً عميقاً في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنساناً

<sup>1</sup> عبد الرحمان عمر المالحى :الدعوة الإسلامية في إفريقيا، الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1989، ص 85، 95.

<sup>2</sup> إصلاح محمد البخاري حمودة : إنتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ما وراء الصحراء تمبكتو - غدامس - نموذجاً (13م/17م) ندار الكتب الوطنية ط 1، ليبيا /2004 ص، ص، 205، 217.

<sup>3</sup> محمد إبراهيم حسن :جغرافية إفريقيا وحوض النيل، مركز الإسكندرية للكتاب، بالإسكندرية مصر، 1997م، ص، ص 521، 543.

جديداً وأن هذا المؤثر هو الإسلام، ولما مررت " بلوكوجا " عند ملتقى نهر "بينوية " بالنيجر (إلى شمال الشرقي من غوس) تركت ورائي المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإسلامية، ولما دخلت السودان الأوسط، وجدتني في دولة تقوم على العدل، وبها جماعة نشيطة من التجار الأذكياء، وكان هناك صناع مهرة في النسوجات، والنحاس والجلد.

كان أثر الإسلام في المجتمع في غرب إفريقيا عميقاً، فقد غير من عادات الأفارقة وفي مظهرهم وطريقة تفكيرهم وخلق ثقافة إسلامية إفريقية، ولا تكاد توجد ناحية من نواحي الحياة إلا وفيها تأثير الإسلام وتعاليمه، ومن أهم خصائص الحياة في هذه البلاد التي أثر فيها الإسلام، وحواضره الروحية هي:

#### أ- المدن الإسلامية بغرب إفريقيا:

أصبحت بعض مدن السودان الغربي مراكز علمية واقتصادية بفضل الإسلام ذائعة الصيت برزت فيها دور العبادة والعلم، ووقفت على قدم المساواة مع العواصم الإسلامية الأخرى في هذا المجال، وقد كتب عن تلك العواصم وعن دورها الحضاري حيث نوه بها أكثر من واحد من المؤرخين الأجانب والعرب<sup>1</sup>. فكانت مدينة تمبكتو حاضرة ثقافية على صله بالحواضر الإسلامية في الجنوب الغربي الجزائري عن طريق التأثير والتأثر، وعلى صلة بالعواصم الثقافية في المغرب والعالم العربي مثل (فاس) بالمغرب و(القيروان) في تونس و(القاهرة) في مصر.

ويذكر أن الكثيرين من علمائها رحلوا إلى فاس وإلى مصر، واتصلوا بعلمائها<sup>2</sup> وقد تحدث المؤرخ السعدي عن العلماء الذين زاروا تمبكتو للتدريس بمعاهدها من مختلف أنحاء العالم العربي، من مغاربة وأندلسيين وحجازيين ومصريين ويشير على أنها أصبحت من حواضر العلم يفد إليها الطلاب من السينغال والنيجر

<sup>1</sup> شوقي عطا الله الجمل : نفسه، ص 154.

<sup>2</sup> Duboisf :Tombouctou la mystérieuse (paris 1899) p 175.

،ومن إمارات (الهاوسا)، و (برنو)، و (كانم)، ويذكر أنها كانت سوقاً للكتب فيها المخطوطات، وتوزع في البلاد الأخرى، وقد أعطى المؤرخ " الحسن الوزان " صورة عن تمبكتو حين زارها في أوائل القرن السادس عشر الميلادي. كما زارها بعض الرحالة الأجانب من أمثال بارث "Barth" الذي زارها في الفترة (1853م- 1854م) وتحدث عنها<sup>1</sup>.

#### ب- الطابع الثقافي والفني:

لقد أشرنا إلى أن الثقافة العربية بل الثقافة بمعناها الواسع انتشرت في غرب إفريقيا في أثر الإسلام وسبق لنا أن ذكرنا كيف أنشئت المدارس وبنيت المساجد لتتقيف الناس وتفتيهم في شؤون دينهم ومن أهم ما تميز به التراث الثقافي في غرب إفريقيا، تأثره إلى حد كبير بالتراث العربي المغربي الأندلسي، وقد أشرنا كيف انتقل علماء من المغرب وغيره من الأقطار العربية إلى المدارس من المغرب وغيره من الأقطار العربية إلى المدارس التي قامت بتلك البلاد، كما انتقل الدارسون منها إلى معاهد العلم المغربية وغيرها.

والحقيقة أن الأثر الثقافي للإسلام في مجتمع إفريقيا كان قوياً وعميقاً، ولعل الصورة التي يقدمها "بالمر" Palmer عن علاقات ممالك غرب إفريقيا الثقافية بالبلاد العربية الأخرى توضح الأثر الثقافي للإسلام واللغة العربية في هذه البلاد، فقد شملت البلاد نهضة علمية، وقامت فيها مراكز ثقافية كانت بمثابة الشعلة التي تضيء طريق المستقبل، وبرز علماء وأدباء في مختلف المجالات، وتأثرت الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية بكل ذلك وساعد تشجيع كثير من السلاطين للحركة العلمية على أن تستمر الحركة في تحقيق أهدافها. فهناك قضية أهم هي نتيجة هذا الالتقاء بين حضارتين متباينتين، الحضارة العربية التي جاءت في ركاب الإسلام، والحضارات الإفريقية التي كانت قبل ذلك في هذه البلاد، ويرى الكتاب والمؤرخون أن هذا الالتقاء بين الحضارتين خضع

<sup>1</sup> Barth,h : travels & discoveries in North & central Africa (london) 1858 . VOL . IV .P.P. 403 ,408.

لنفس القواعد والنتائج التي تترتب على هذه الظاهرة، وانتهى المؤرخ (تويني) بتقنيها في مبادئ محدّدة<sup>1</sup>.

ويتضح لنا من خلال هذا المقال، أن النشاط التجاري والحرفي ظل مرتبطاً بالمواد الأولية المتوفرة وهذا ما ساعد في ظهور صناعات محلية مثل صياغة الفضة التي تقننوا في صنع أدوات الزينة التي طبعت بطابع محلي خاص، ونفس الظاهرة يمكن أن نسقطها على سائر الحرف من صناعة للسعف وصهر للحديد وسبك للذهب ونجارة للخشب.

فكانت هذه المواد تمثل متنفساً لهؤلاء الحرفيين أسقطوا فيها بعدهم الجمالي والفني الذي تزخر به الصحراء، كما أبرزوا من خلالها مواهبهم وإلهاماتهم الفطرية الخيالية الجذابة.

وبالجديرة بالملاحظة أن المسالك ما بين الأقاليم أدت إلى بروز ظاهرة القوافل الكبرى التي تشترك فيها عدة قبائل، فأصبح إقليم توات يعرف رواجاً بالتجارة فالقوافل تأتي من مشارق الصحراء، محملة بمختلف السلع لتعود بعد ذلك محملة بمختلف أنواع التمور<sup>2</sup>.

وتؤكد المصادر التاريخية أن القوافل التجارية، وضعت نقاط مخصصة للتبادل التجاري، حيث تقيم أسواق تستعمل فيها وسائل تقليدية في مختلف السلع كالذراع والقامة والمزود ومع النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ التجار يبتعدون عن أسلوب المقايضة التي كان متعارف عليها وعوضت بعالم النقد والصرف.

## 5- الدور الثقافي والديني:

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا على يد العرب المسلمين تأثيراً عميقاً في المجتمعات التي انتشر فيها، وفي سلوكات الناس ومعاملاتهم وفي ثقافتهم

<sup>1</sup> حسن أحمد محمود: دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا، المجلة التاريخية المصرية، مج 14 مصر، 1968، ص 211.

<sup>2</sup> Les Caravanes du Sud Oranais.op.cit p 152.

وعلاقاتهم بعضهم مع البعض الآخر، وقامت في هذه المناطق التي قطنها المسلمون ممالك الإسلامية كانت لها أنظمتها، وحاولت هذه الممالك أن تطبق الشريعة الإسلامية ولما وقع انحراف عن التعاليم الإسلامية، ظهر مصلحون حاولوا الإصلاح والبدع بالطرق السليمة حيناً، وبالحرث حيناً آخر، وقد نوه الرحالة العرب والأوروبيون أيضاً الذين رأوا هذه البلاد التي انتشر فيها الإسلام بالدور الذي لعبه المسلمون في حياة المجتمعات التي مكثوا فيها<sup>1</sup>.

تأثر غرب القارة الإفريقية بالحواسر الإسلامية نتيجة التأثيرات القادمة من هذه المؤسسات عن طريق الدعاة، والقوافل التجارية في نشر الحضارة الإسلامية، وكان لها أثرها في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمناطق الأقاليم، فالنظام الإسلامي ساهم بمقوماته في إظهار ونشر هذا الدين الجديد وتعاليمه السامية<sup>2</sup>.

وصاحب انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، ظهور طبقة من المصلحين، ورجال العلم، كانت واعيية بما قامت به في محاولتها الإصلاحية، كزاوية كنته التي سعت لمحاربة البدع والعادات السيئة التي كانت منتشرة بين الناس، هرع رجالها يدعون لتطهير المجتمع الإسلامي مما شابه من بدع وخرافات، مما لا يتفق ومبادئ الإسلام، وانتشار الطرق الصوفية خاصة القادرية<sup>3</sup> وما انبثق عنها من طرق فرعية ساهمت هي الأخرى في نشر الثقافة الإسلامية، ومقاومة الاستعمار الأوربي، عندما تعرضت البلاد للغزو الاستعماري الذي أندفع إلى المنطقة طمعاً في ثرواتها ومتسلحاً بما أمدته به النهضة الأوربية من أسلحة فتاكة متطورة

<sup>1</sup> محمد محمود: العلاقة الثقافية بين السكان في شمال وجنوب الصحراء الكبرى، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تنظيم كلية الآداب تطوان المغرب كلية الدعوة الإسلامية طرابلس الجماهيرية أيام 15-17 محرم 1428هـ الموافق 12-14 ماي 1998، مراجعة د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط الجماهيرية العظمى، 1999/1429 م. ص 43، 52.

<sup>2</sup> شوقي الجمل وآخرون: تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1996، ص 115.

<sup>3</sup> شوقي الجمل: المرجع السابق، ص 116.

مكنته من التغلغل في المناطق المجهولة والصعبة مستعملاً عدة وسائل مادية وبشرية.

ويمكنني القول إن للمراكز الإسلامية تأثيرات بارزة في غرب إفريقيا من خلال العوامل التي ساهمت هي الأخرى في نشر الإسلام والثقافة، حيث لعبت حركات الفتح والتوسع والجهاد، التي حفل بها تاريخ الإسلام<sup>1</sup> في المنطقة خلال فترة طويلة دوراً واضحاً كان لها أثر في نشر الإسلام من خلال التسامح والأخوة في الدين والعدل، والأخلاق رجاله الذين يرفضون ظلمات الجهل بسلوكياتهم المميزة هذا الفضاء الإسلامي كان على نطاق واسع<sup>2</sup> ومن أهم أسباب انتشاره:

#### أ- التجارة والدعوة الإسلامية:

يعتبر التجار المسلمون أهم وسائل الدعوة الإسلامية في إفريقيا من داخل القارة وخارجها حيث وفد الكثيرون على مَرَّ العصور على أجزاء القارة المختلفة بهدف أساسي هو نشر الإسلام والتبادلات التجارية.

وإن كان نشر الإسلام من أهم العوامل الأساسية مصحوباً بالعامل التجاري، كما عبّر عنه المؤرخ " ترمهام " بقوله: "إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حدّ كبير<sup>3</sup>، وهذا يدل على أن التجار نشروا الإسلام فيما وراء الصحراء كانوا من البربر اللمتونيين من قبائل شمال إفريقيا الذين حملتهم القوافل عبر الصحراء، في نقل الحضارة الإسلامية من الشمال إلى الجنوب الصحراء مباشرة في بادئي الأمر، فيما يطلق عليه حالياً منطقة الساحل (وهي تلك المناطق التي تجاور الصحراء في منطقة شبه السّافانا التي تتدرج نحو الغابات الاستوائية )، والصحراء لم تكن

<sup>1</sup> شوقي الجمل : المرجع نفسه، ص 159، 170.

<sup>2</sup> خديجة النبراوي : تاريخ المسلمين ومشكلاتهم، النهار، للطبع والنشر والتوزيع، مصر 1998، ص 51.

<sup>3</sup> Spenser Trimingham a his buy of Islam is West Africa .London :ox Ford univ press 1962.p.31.

أصلاً بهذا الجفاف والامتداد، وقد عرفت طرق القوافل بين الشمال عبر الصحراء للتجارة، تلك التجارة التي كانت الوحيدة والأساسية في منطقة ما وراء الصحراء<sup>1</sup>. وقد استمر الحال على هذا الوضع من ربط شمال إفريقيا بالمناطق جنوب الصحراء، ذلك الربط الذي كان له مغزاه التجاري، ولكن في الانتقال البشري أيضاً ويهمنا على وجه الخصوص انتقال الإسلام وانتشاره عبر الصحراء، مقتفياً طرق تجارة القوافل التي وجدت قبل دخول الإسلام في المنطقة إلى أن جاء الأوروبيون، فحوّلوا التجارة إلى مراكزهم الساحلية جنوباً، بعد أن كانت تتجه تقليدياً نحو الشمال، الذي كانت تتطلع إليه باعتباره العالم الوحيد المفتوح أمامها للتجارة والثقافة والمرجعية الدينية، وهكذا فقد أدى هذا التحول إلى انكماش التجارة دون انهيارها، حيث ما زالت هناك تجارة قوافل وطرق عبر الصحراء تصل ما بين الشمال والجنوب والساحل على ذلك القوافل التي تصل مدينة تمبكتو ومدينة غاو من مدن شمالي مالي وغيرها<sup>2</sup>.

وفي غرب إفريقيا على وجه الخصوص كان لتجار الفولاني والهوسا والتكرور الدور الأهم في انتشار الإسلام، إذ كان هؤلاء ينزلون في الأسواق الكبرى ثم يحتكون بالزنج عن طريق التجارة ويؤثرون فيهم بأمانتهم وسلوكهم الشخصي، وغالباً ما ينتهي هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنج في الإسلام، ولذلك كاد الإسلام أن يتركز في المراكز التجارية الهامة وفي المدن الكبرى<sup>3</sup>. واستطاع التجار العرب المسلمون وخاصة قبيلة كنته، في الجنوب الغربي الجمع بين التجارة والتعليم، فإذا ما استقر بهم المقام أنشؤوا مسجداً وقاموا في نفس الوقت بمزاولة النشاط التعليمي والاقتصادي.

<sup>1</sup> حورية توفيق مجاهد : الإسلام في إفريقيا روائع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية 2002، مصر ص 211.

<sup>2</sup> حورية توفيق مجاهد : نفسه، ص 212.

<sup>3</sup> حسين احمد : انتشار الإسلام في إفريقيا .... دور العلماء والتجار، دار القلم بيروت 1985، ص 46.

ويمكن تقسيم توغل المد الإسلامي فيما وراء الصحراء وأواسط بلاد السودان الغربي إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى : يغلب عليها الطابع السلمي، وكان التجار البربر والعرب دعامة.

- المرحلة الثانية: يغلب عليها طابع جهاد الدويلات مثل المرابطين الذين مدّوا النفوذ الإسلامي المتنامي اقتصاديا وثقافيا سندا سياسيا.

- المرحلة الثالثة: وقد جمعت بين السلم والجهاد وترتبط بالدعوة للعقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها بين السكان، وفي هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والريادة الثقافية إلى السكان من السودان الغربي، بعد أن تشبّثوا بروح الإسلام، وعرفت المرحلة الأخيرة قيام عدد من الممالك الإسلامية السودانية تعاقبت على حكم المنطقة بين القرن الثالث عشر، والسابع عشر الميلاديين وهي مالي، وصنغاي وإمارات الهوسا<sup>1</sup>.

ويلاحظ المتتبع أن الضعف قد بدأ ينتشر في المجتمعات الإسلامية في جنوب الصحراء منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وما أن انتصف القرن الثامن عشر حتى ظهرت حركة إصلاح ديني تنزعها جماعة من المجددين تعمل على الإصلاح.

بعد أن تأثروا بالحركة الإصلاحية التي ظهرت في أجزاء العالم الإسلامي مثل الحركة الوهابية بزعامة محمد بن عبد الوهاب في نجد، والحركة المهدية بزعامة محمد بن المهدي، والحركة السنوسية بزعامة محمد السنوسي، وسعى كل المصلحون إلى تكوين مجتمعات إسلامية سليمة في عقيدتها ونظيفة في تعاملها، وتخذوا الجهاد وسيلة لتوسيع دائرة الإسلام ونشر تعاليمها بين الوثنيين من خلال

<sup>1</sup> العرب وإفريقيا: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز الدراسات الوحدة العربية مركز دراسات الوحدة العربية ط 1984، 1، انظر: يوسف فضل حسن، ص 40 .

دور الحواضر في الجنوب الجزائري التي كان لها الدور الفعال في نشر هذا المناخ الروحي الذي اتخذ الجهاد سبيلاً لمقاومة توغل الاستعمار الأوروبي. ولاشك أن دعوات الحركة المهدية التي انبعثت في ذلك الحين في السودان الغربي كانت في بعض مظاهرها رد فعل للهجة الاستعمارية والتسلط الأوروبي<sup>1</sup>، وكان هؤلاء المصلحين من أبناء السودان الغربي بصورة عامة ومن قبائل الفولاني بصورة خاصة ففي أقصى الغرب قاد إبراهيم موسى (\*) توفى 1751م، الجهاد في "فوتا دجلون" ونجح في نشر تعاليم الإسلام وفي فوتاتورو في السنغال طرح سليمان بال (\*\*) توفى 1776م، التعاليم نفسها، وفي شمال نيجيريا أعلن الشيخ عثمان دان فودي (عام 1804م) الجهاد ونجح ووسع أبنائه من بعده دائرة خلافة سكت (سوكتو) حتى شملت أجزاء واسعة من المنطقة وانتهى نفوذها على يد الاستعمار<sup>2</sup>.

وكان لدعوة الشيخ عثمان دان فودي وخلفائه أثراً بارزاً على بلاد السودان الوسطى والغربية، ففي ماسينا قاد حمد بري (1810-1818م) ثورة مماثلة أوت إلى إنشاء دولة الإسلامية، وأخرى قادها الحاج عمر بني سعيد من أتباع الطريقة القادرية، وسيطر الحاج عمر على معظم إقليم السينغال والنيجر، وانتهى أمر دولته بالتدخل الفرنسي عند نهاية القرن التاسع عشر<sup>3</sup>.

بالفعل كانت حركات الجهاد قد وسعت من رقعة الإسلام ودعمت التواصل الديني والثقافي بين هذه المنطقة والمناطق الأخرى المجاورة، وربما زادت من معرفة الإقليم بما يدور حوله من مؤامرات استعمارية، ولكن مع علم هؤلاء الدعاة

<sup>1</sup> يوسف فضل حسن : دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط1، 1989، ج2، ص42.

<sup>2</sup> يوسف فضل حسن : نفسه، ص 43.

<sup>3</sup> عبد الخالق أحمدون: التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى من خلال وثيقة فقهية أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء تنظيم كلية الآداب تطوان المغرب، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس الجماهيرية أيام 12-14 ماي 1998م، مراجعة د.عبد الحميد عبد الله الهزامة، طليعة الدعوة الإسلامية، ط 1 الجماهيرية 1999، ص 519، 523 .

والمناصرين بما لحق بالشمال الإفريقي من تدخل استعماري أوروبي، فإنهم لم يهبوا لنصرة جيرانهم أو أن يتحدوا فيما بينهم لمواجهة ذلك الخطر قبل أن يحقق بهم ولعل من هذا كله ما يشير إلى أن الصلات العربية الإفريقية لن تبلغ درجة من العمق تؤهلها لذلك الدور.

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي بداية اضمحلال التجارة عبر الصحراء وربما كان مرد ذلك لتلك الحروب التي اجتاحت المنطقة في أول القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن السبب الأساسي يعود للضغوط الأوروبية التي مارسها على الجزء الجنوبي من البحر الأبيض المتوسط حيث تنتهي الطرق التجارية الصحراوية<sup>1</sup>.

#### ب- الطرق الصوفية:

ارتبط انتشار الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا بالذات بانتشار الطرق الصوفية وعلى الأخص القادرية والتيجانية، وقد زاد عدد أتباع هذه الطرق الصوفية ولاسيما بين المشتغلين بالتجارة، وبين العلماء والفقهاء وقد لعب إتباع هذه الطرق دوراً دينياً وسياسياً كبير الأثر في تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها، وقد أصبح كل مسلم تقريباً يرى لزماً عليه أن يرتبط بإحدى هذه الطرق الدينية<sup>2</sup>. وأقام أتباع هذه الزوايا للعبادة، وإيواء الوافدين المحتاجين للمأوى والطعام والاعتكاف بعيداً عن ملذات الحياة وزخرفها. وكانت لكل طريقة تنظيماتها وأعضاؤها وعلى رأسهم شيخ الطريقة، وللطريقة أوراها وتقاليدها الخاصة بها تختلف عن أوراها الطرق الأخرى، وهذا وإن كانت

<sup>1</sup> إبراهيم محمد بلولة : الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، ط 1، دار النشر القلم، القاهرة 1970، ص 59.

<sup>2</sup> شوقي الجمل : نفسه، ص 146، 147.

جميع تلك الطرق ترمي إلى غاية واحدة وهي الوصول بالنفس الإنسانية إلى درجة الكمال، لكن الوسيلة لتحقيق تلك الأهداف اختلفت من طريقة<sup>1</sup> إلى أخرى. وقد انتشرت الطريقة القادرية بالذات في السودان الغربي خاصة في القرن الخامس عشر الميلادي على يد مهاجرين من قبيلة كنته، جاء منهم محمد الكونتي من توات، في القرن الخامس عشر الميلادي، وتعرف الطريقة عادة بالطريقة البكاية نسبة إلى ابنه أحمد البكاي (ن 1504) ويرجع الفضل في نشر الطريقة ومبادئها يعود إلى عمر الشيخ بن أحمد (1460-1553م) الذي تلقن العلم ومبادئ الإسلام على يد المصلح التواتي (محمد بن عبد الكريم المغيلي) عند عودته من بلاد الهوسا، بعد أن رسخت قدماءه، أين أرسل أتباعه لنشر الإسلام في الصحراء وحوض النيجر وبلاد الهوسا من توات، واتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم، وأنتشر أتباع هذه الطريقة من الفقهاء والمريدين من السنغال إلى مصب النيجر، وأقاموا المراكز لدعوتهم في مختلف الجهات. وساهمت المؤسسات الدينية كالأزهر الشريف، والمعاهد الدينية بتونس، وطرابلس والقيروان فانتشرت القادرية في مدينة (جني) ومدينة (تمبكتو) وغيرهما من العواصم بغرب إفريقيا، وتفرعت منها طرق جديدة اتخذت أسماء أخرى منها الطريقة (الفاضلية) التي تنتسب إلى الشيخ محمد فاضل ( 178م - 1869 م) والطريقة (المريدية) التي تنتسب إلى " أحمد بامبا"<sup>2</sup>.

أما التيجانية فتنسب إلى أحمد بن محمد التيجاني وقد انتشرت على وجه الخصوص حين قام بن عيسى زعيم زاوية تماسين (Temassine) بجهد ضخم نشرها بين رجال القوافل والتجار، فانتشر أتباع الطريقة في حوض (السنغال) وفي مدينة (تمبكتو) ومدينة (سيجو)، وأسسوا زوايا في مدينة (كانو) ومدينة

<sup>1</sup> محمد عثمان صالح : الصوفية دورها في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا، مجلة التصوف الإسلامي، العدد 03 جوان 1979م ص، ص 50، 51.

<sup>2</sup> شوقي الجمل : نفسه، ص 147.

(برنو) و(واداي) و(شنقيط)، واستمرت الطريقة التيجانية في النمو والانتشار وزاد عدد أتباعها حتى أصبحت الطريقة السائدة في غرب إفريقيا<sup>1</sup>. أدت الطرق الصوفية دوراً هاماً في مقاومة الاستعمار الأوروبي، وإن كان هذا الدور ما زال في حاجة إلى الإثراء البحث قد تكشف عنه النقاب للباحثين، حيث أن أتباع هذه الحركات والمريدين الذين التفوا حولهم اعتبروا الجهاد السياسي والوطني جزءاً من واجبهم، لا ينفصل عن الجهاد في سبيل نشر الدين الإسلامي.

فمعظم الكتابات الأجنبية تعالج الأمر من حيث الأبعاد القانونية، والخارجة عن نطاق المؤلف ولكن دور الباحثين والمختصين يحتم عليهم أن يضعوا هذه الحركات الوطنية والدينية في مكانها الصحيح.

ومن المعروف أن (الحاج عمر الفوتي) زعيم السودان الغربي في القرن التاسع عشر جعل من التيجانية وسيلة للوصول إلى أهدافه في طرد ومحاربة الوثنيين من البلاد ولذا كثيراً ما يطلق على حركته اسم (العمرية)<sup>2</sup>.

وفيما يخص كتابات المستشرقين، فتذهب إلى القول " أن هذه الطرق لقيت نجاحاً في إفريقيا الزنجية، ف كبار المرابطين المثقفين من مشايخ الطرق وحولهم الطبقة الصوفية، فرضوا أنفسهم على السكان، بإسم الدين أو زولوا السحر ونافسوا الكهنة من الوثنيين في صناعتهم، فحل المرابط محل الكاهن والساحر وجمع في يده سلطات روحية مختلفة، فحلت الطرق محل الجمعيات السرية الوثنية<sup>3</sup>، وهذا تشويه للتاريخ ناتج عن أحقاد دفيئة تجاه الإسلام والمسلمين، حيث

<sup>1</sup> حورية توفيق مجاهد : نفسه، ص 225.

<sup>2</sup> Dubris, F :L'islam Noir, p 60.

<sup>3</sup> عمر احمد سعيد : نظرات حول أثر الإسلام في التشكيل الثقافي في غرب إفريقيا، بتركيز على الدور الحضاري لخلافة صكتو، "مجلة دراسات إفريقية"، العدد 25، ديسمبر 2002 م، ص، ص 202، 208.

شبهوا الطرق الصوفية بالجمعيات السرية الوثنية، قال الله تعالى: "أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار"<sup>1</sup>.  
تمكنت الطرق الصوفية بإيجابياتها وسلبياتها أن تؤدي دوراً بارزاً في نشر الإسلام وترسيخ مبادئه في إفريقيا الغربية، والوقوف أمام جميع التحديات سواء من الوثنيين أو من دعاة الكنيسة وتنظيم الجهاد ضد الاستعمار الأوروبي الحديث ولا زالت الزوايا الطرقية تدعو إلى مبادئها وهو القيام بالحركات الإصلاحية وتخليص الدين مما علق به من شوائب الشرك والوثنية والبدع والخرافات وقد تبلورت جهود المصلحين في مجالين:

1- المجال الأول: مجال الوعظ والإرشاد، وذلك بتدريس الناس العلوم الشرعية ومبادئ الطرقية إلى جانب بناء المساجد والزوايا، وإتباع حلقات الذكر، ومن ناحية التأليف، تركوا لنا ثروة كبيرة من مؤلفاتهم في مختلف الفروع الدينية والعلمية كال تفسير والفقه وشرح الأحاديث النبوية والعقائد واللغة والشريعة الإسلامية وقصائد المدح وغيرها من المعارف العلمية، والتي ضاع وفقد الكثير منها. وان الباحثين في حاجة ماسة إلى هذا التراث الثقافي الإسلامي، ويشير في هذا المجال إلى أن عدداً من نفائس المخطوطات قد تداولته بعض الخزائن ومراكز المخطوطات بأدرار<sup>2</sup>.

2- المجال الثاني: مجال الجهاد، اصطدمت حركات الإصلاح الديني بالسلطات الحاكمة في هذه البلاد، أدت إلى الحروب، وهذا من خلال التكامل بين حركة الإصلاح الدينية وحركة الجهاد المسلح لإعلان شأن الإسلام في السودان الغربي وإخضاع البلاد الوثنية لسلطات القوات الإسلامية<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> سورة (ص) الآية 28 .

<sup>2</sup> مهدي ساتي صالح: المكونات والأسس التريوي لبعض حركات التصحيح الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، مجلة دراسات إفريقية العدد 34، ديسمبر 2005 م، ص، ص 185، 198.

<sup>3</sup> أحمد محمد كاني: الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الهوسا قبيل الجهاد، ورقة ثقافية 7 (الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا)، الزهراء للإعلام العربي، ط 1، 1987 م، ص، ص 49، 55.

ولعل حركة "عثمان دان فودي" واصطدامه بحكام الهوسا والحروب التي نشبت بينه وبينهم تعطي مثلاً قوياً لذلك الصراع ودور الجهاد فيه<sup>1</sup>. والحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا هي في حقيقتها جزء من الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي كان هدفها محاربة البدع والعادات الضارة التي انتبعت في حياة الناس، وهذه الحركات في غرب إفريقيا بالذات، كانت تهدف إلى تقليص الفجوة بين الثقافة الإفريقية والثقافة الإسلامية بحيث تحتفظ الثقافة الأصلية بخير ما فيها مع التطور الذي يفرضه الدين الإسلامي بتعاليمه ومبادئه السمحة<sup>2</sup>.

ولعل ما يمكن قوله أن هذه الحركات الإصلاحية كان لها دور هام في تطهير الأذهان والنفوس والسلوكات في هذه المنطقة بل وفي العالم الإسلامي، وتوجيه الناس إلى أكثر من مبادئ الإسلام التي أغفل عنها الناس وأغرضوا عنها. بالإضافة إلى نشر الدين الإسلامي على نطاق أوسع بين الوثنيين والدفاع عنه وعن حركة واستقلال الأقاليم الإفريقية والوقوف في وجه الاستعمار الأوروبي. الدور الثقافي: ظهر في هذه المناطق بغرب إفريقيا علماء تركوا لنا زخماً علمياً وفقهياً في مختلف مجالات العلوم الإسلامية والإنسانية والاجتماعية وحتى الاقتصادية ولعل القرنين الرابع والخامس الهجريين، الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين يمثلان الذروة في الثقافة العربية<sup>3</sup>.

وقد تأسست في جنوب غرب إفريقيا في ظل الإسلام، مراكز حضارية استقطبت الكثير من علماء العالم الإسلامي وطلاب العلم والمعرفة، وانتشار الإسلام كان مرافقاً لانتشار العربية كلغة للتحدث بين الناس وكذلك في المعاملات التجارية خاصة في اللغات واللهجات العربية تطبيقاً لقوله تعالى: «بلسان عربي مبين»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> أحمد محمد كاني: نفسه (المرحلة التكوينية، مرحلة الدعوة)، ص، ص 65، 79.

<sup>2</sup> شوقي الجمل: نفسه، ص 115.

<sup>3</sup> شوقي الجمل: نفسه.

<sup>4</sup> سورة الشعراء، الآية 195.

بعد أن أفتى أغلب أئمة المسلمين رفضهم إجازة ترجمة القرآن الكريم، وعدم جواز قراءته بلغة أجنبية، ووجوب الصلاة بها، فكان لابد لمن يريد معرفة أسرار الدين، أن يتعلم اللغة العربية ويتقنها فأنتشرت بصورة واسعة اللغة العربية بين السكان في ربوع السودان الغربي<sup>1</sup>.

وترتب على تشجيع حكام الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا للعلماء ورجال الدين أن توافد على هذه البلاد عدد منهم من مختلف الأقطار الإسلامية من المشرق والمغرب، وقد أغرق عليهم السلاطين المال وشجعوهم على الإقامة ببلادهم لتثقيف الناس وإرشادهم في دينهم<sup>2</sup>.

واشتهر عن السلطان "اسكيا محمد" سلطان مالي الذي حكم في الفترة (1493-1527م) شجعه العلماء بمن وفد منهم إلى البلاد الإسلامية، فحضر عدد منهم، وأقاموا في مدينة غاو، وجني، وتمبكتو، فكان وجودهم بهذه البلاد سبباً في نهضة ثقافية شملت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وبفضلهم أصبحت اللغة العربية هي لغة رسمية<sup>3</sup>.

وحين أدى "أسكيا محمد" سلطان الأسقيين فريضة الحج كان بصحبته المؤرخ "محمد كعت ومر بمصر وتعرف على العالم المصري "جلال الدين السيوطي" وكان من أهم رجال العلم في زمانه العالم الفقيه "محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني" الذي عاش فترة طويلة في تمبكتو، التي كانت من أهم المراكز الإسلامية بغرب إفريقيا، وكانت تجارة الكتب رائجة فيها، كما اشتهرت بوجود العديد من المخطوطات النادرة في مكتباتها، كما وجد فيها نساخون متخصصون

<sup>1</sup> نعيم قداح : نفسه، ص 116.

<sup>2</sup> شوقي عطاء الله الجمل: الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، سماتها ودور المغرب فيها، مجلة المناهل، العدد 07، تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط المغرب، نوفمبر 1976، ص، ص 132، 149.

<sup>3</sup> محمد ولد عبيد: حاضرة تمبكتو، تاريخها، منجزها الحضاري، وصورتها في مرايا الرحالة، وزارة الثقافة الرباط، ط 1، نوفمبر 2003، ص 152، 154.

في نسخ أصول المصادر الأساسية علاوة على أنها اشتهرت بوجود خزانة عامة للكتب بها كان يعتمد عليها أهل العلم والأدب في إنجاز بحوثهم المختلفة<sup>1</sup>. ومن مراكز الإسلامية الأخرى التي ظهرت في السودان الغربي مدينة (جني) وهي تقع على مسافة مائتي ميل، إلى الجنوب الغربي من تمبكتو ورغم أنها أسست قبل تمبكتو بوقت طويل، إلا أنها كانت خارجة عن دائرة النفوذ الإسلامي، إلا منذ القرن الخامس الهجري، التاسع عشر الميلادي، حين أسلم أميرها عام 1050م، مسجدها العتيق الذي بني على شكل المسجد الحرام بمكة. وذكر المؤرخ "عبد الرحمن السعدي" أنه كان بها أكثر من الأربعة آلاف من المهتمين بالعلم وأشار إلى بعض علمائها كالفقيه (فودي محمد سافو الونكري) والقاضي (العباس الكنتي الجندي)، وكان فقيهاً وعالمًا، والقاضي (محمود بن أبي بكر بعبع)<sup>2</sup>.

ومن المؤسسات الإسلامية الهامة الأخرى، التي برزت في السودان الغربي مؤسسة (كانو)، وقد برزت بالذات بعد أن رحل إليها بعض علماء تمبكتو بعد إضمحلالها حيث أسست في مدينة (كانو) مدرسة للعلوم، ومدرسة للقضاء الشرعي ذاعت شهرتها في المنطقة وفي بلاد العالم الإسلامي<sup>3</sup>، أما مدينة (كاشنة) فقد جلبت عدداً كبيراً من العلماء، وقد أقام بها الإمام المغيلي زمنا طويلاً، يعلم الناس ويرشدهم ويفصل في الخصومات بينهم، كما أن بعض المصادر تشير إلى أن "جلال الدين السيوطي" رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في كاشنة زمناً طويلاً يعلم ويرشد الناس ويفقههم في الدين<sup>4</sup>. وقد وفد إلى غرب إفريقيا علماء من شتى الأقطار العربية، ونشأت مدن اشتهرت بطابعها الحضاري والثقافي.

<sup>1</sup> شوقي الجمل: نفسه، ص 118.

<sup>2</sup> السعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، ص 11.

<sup>3</sup> MEEN, C.K: The Northern TR: Bes of Nigeria (Landon 1925) Vol 1p61.

<sup>4</sup> شوقي الجمل: نفسه، ص 199.

وبالفعل انتشر الإسلام في غرب إفريقيا وحلت ثقافته<sup>1</sup>، فالمؤرخ "ترمجهام" يشير إلى الثنائية التي تتضح في مجتمعات غرب إفريقيا، فهناك نظم الإسلامية صرفه إلى جانب تقاليد ترجع إلى ما قبل الإسلام<sup>2</sup>.

عمّت الثقافة العربية بمعناها الواسع في غرب إفريقيا على أثر انتشار الإسلام، ومن أهم ما تميز به التراث الثقافي في غرب إفريقيا، تأثيره إلى حد كبير بالتراث العربي المغربي<sup>3</sup>.

والحقيقة أن الأثر الثقافي للإسلام في مجتمع إفريقيا كان قوياً وعميقاً، ولعل الصورة التي يقدمها "بالمر" Palmer عن علاقات ممالك غرب إفريقيا الثقافية بالبلاد العربية الأخرى، توضح الأثر الثقافي للإسلام واللغة العربية في هذه البلاد، فقد شملت البلاد نهضة علمية، وقامت فيها حواضر ثقافية كانت بمثابة الشعلة التي تنهي طريق المستقبل، وبرز علماء وأدباء في مجالات مختلفة، وتأثرت الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية بكل ذلك وساعد تشجيع كبير من الحكام للحركة العلمية على أن تستمر الحركة في تحقيق غاياتها<sup>4</sup>.

وبدأ المستوى الثقافي على الرغبة من التعليم التي تميزت بها العقلية الإفريقية وهذه الحركة الثقافية النشطة قد أتت كلها ناضجة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، إبان فترة الأوج في (غاو) التي ظهرت فيها مؤلفات كبار العلماء.

كانت المراكز الثقافية والمدارس في إفريقيا الغربية تمتاز بظاهرة الانتشار وارتباطها العميق بالدين، ففي أول الأمر كانت المدارس ملحقة بالمساجد، وهي على شكل غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد، وهناك أمكنة أخرى لنوم الطلبة القادمين من البلاد البعيدة.

<sup>1</sup> Des champs, H: Les Religions De L'Afrique Noir (1945) p127.

<sup>2</sup> Tringham, S: Islam in West Africa pp, 124, 125.

<sup>3</sup> شوقي عطاء الله الجمل: مجلة المناهل، ص 157.

<sup>4</sup> Palmer :Islam in West Sudan & The West Coast of Africa p 33.

والحق أن الوثائق الإفريقية والعربية تتيح لنا فرصة الحصول على معلومات واسعة عن المراكز الثقافية التي انتشرت منها الثقافة العربية، وهذه المراكز هي المدن التي كثرت فيها المدارس، ومقر الدعوة الإسلامية وفي مقدمتها: تمبكتو، وجني، وغاو، وكومبي صالح وولاته، وتوتة، وسيلا (السّنغال) ومدينة وا Wa (غانا)، وأغامس (النيجر) وأكد المؤرخ " بيلوكران تكت " أن هذه المدن كانت تحتوى على ألفين وخمسمائة مدرسة لتعليم القرآن الكريم والعربية، وهي ترسل طلابها ليتابعوا تعلمهم إلى مدينة الفاشر (دارفور بالسودان)، وتنحصر هذه المدارس أكثر في مدينة (كانو) ومدينة (سكوتو)، وكانت مدينة تمبكتو منذ القرن الثاني عشر الميلادي، مركزاً ثقافياً، فقد كان فيها مسجدان كبيران (جانكوب، سانكوري) يمثلان جامعتين للعلم والمعرفة<sup>1</sup>.

وكانت الدروس فيها تستمر طيلة النهار، لا تتقطع إلا في وقت الصلاة، وكان بعض الأساتذة يدرسون في الليل، وتضمنت هذه المدينة مائة وثمانين مدرسة وقد ذكرها " ليون الإفريقي " أن مدينة تمبكتو، قد إستوردت كثيراً من الكتب العربية، وكانت مدينة "جني" مثلاً لمدينة تمبكتو، وقد وجدت فيها خمس عشرة مدرسة وكثيراً من الكتب، عطلها المستعمرون، ونهبوا كتبها، واغلقت المدرسة الخيرة فيها عام 1913<sup>2</sup>.

ويمكننا أن نستخلص النقاط التالية:

- 1- سرعة انتشار التعليم العربي الإسلامي في ما وراء الصحراء.
- 2- تنوع دور التعليم من ، مدراس ، زوايا ، مساجد ، كتاتيب ، ربط.
- 3- محاربة الأمية، وانخفاض مستواها، جراء انتشار الدين الإسلامي.

<sup>1</sup> الشيخ الأمين عرض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية في القرن 16 م، (ندوة حول تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19 م) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1984 م، ص 94، 102.

<sup>2</sup> نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب، ت، ص 157، 160.

## خاتمة :

يتبين لنا على ضوء ما سبق توضيحه أن المراكز الحضارية الكبرى بمنطقة توات ساهمت في التأثير الروحي على عزائم الإفريقيين لمقاومة الهجمة الاستعمارية الأوروبية، التي اتخذت من نشر المسيحية ستاراً لترسيخ دعائم الثورة الصناعية والقضاء على السلطة الإفريقية الحرة.

لقد أشرنا في أكثر من مكان، أن المراكز الحضارية سواء في شمال المغرب أو في جنوبه ساهمت في البناء الثقافي بهويته الإفريقية بمعنى أن النُفلة الحضارية كانت بقدر التفاوت بين الإسلام والثقافة المحلية.

وعرف الإفريقيون في الاقتصاد حق الفقير في مال الغني، ونظام بيت المال وردّ الأمانات إلى أهلها كما عرفوا في الآداب الدينية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزموا بترك المحرمات، وأداء الصلاة وعرفوا في الآداب الاجتماعية اللباس الفضفاض، واهتموا بالنظافة اهتماما كبيرا، والتزموا بمراسيم الوفاء.

وعلا شأن المرأة فمارست حقوقها بانطلاق وحرية وتغلغلت الشريعة الإسلامية شيئا فشيئا في المجتمع القبلي بفضل الأحكام الشرعية التي كان يصدرها رجال القضاء الإسلامي في تلك البلاد.

وكان كبار المشايخ والعلماء في منتهى الاستقامة والمعرفة بقواعد الإسلام فكانوا لا يدعون لأنفسهم كرامات أو خوارق، وكان العامة تنتظر لهؤلاء العلماء نظرة تقديس، وهكذا حقق الإسلام انتشاره، وكانت نتائجه إيجابية في حياة الأفارقة وهو ما يجعل المستقبل الحقيقي للإسلام في إفريقيا.

## أ- قائمة المراجع : (بالعربية).

- 1- محمد محمود ، العلاقات الثقافية بين السكان في شمال وجنوب الصحراء الكبرى، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الجماهيرية 1998.
- 2- شوقي الجمل، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة، القاهرة، 1996.
- 3- خديجة النبراوي، تاريخ المسلمين ومشكلاتهم، دار النهار للنشر، القاهرة، 1998.

- 4-حورية توفيق مجاهد، الإسلام في إفريقيا روائع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2002.
- 5- عبد الخالق أحمدون، التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، كلية الآداب تطوان، المغرب، 1996.
- 6- الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثرها الحضارية حتى القرن 16 م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1984.
- 7-نعيم قدامح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983.
- 8-حسين أحمد: الإسلام في أفريقيا... دور العلماء والتجار، مجلة دراسات إفريقية، العدد 19 مدريد، 1987.
- 9-يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب، دار النشر جامعة الخرطوم، السودان 1989.
- 10- إبراهيم محمد بلولة: الهجرات التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، دار النشر للقلم، القاهرة 1970.
- 11- محمد عثمان صالح: الصوفية، دورها في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا، مجلة التصوف الإسلامي، العدد 3، 1980.
- 12- عمر احمد سعيد: نظرات حول اثر الإسلام في التشكيل الثقافي في غرب إفريقيا، مجلة دراسات افريقية، العدد 25، ديسمبر 2002.
- 13- مهدي ساتي صالح: المكونات والأسس التربوية لبعض حركات التصحيح الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، مجلة دراسات افريقية، العدد 34، 2005.
- 14- أحمد محمد كاني: الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الهاوسا، القاهرة 1987.
- 15- السعدي عبد الرحمان: تاريخ السودان، دار الكتاب، بيروت، 1987.
- 16- عثمان السيد أحمد: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية بغرب إفريقيا، مجلة دراسات افريقية، العدد 41.
- 17- عبد الرحمان زكي: حركة الإصلاح الديني في غرب إفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، ج3، مدريد، 1965.

- 18- عبد الفتاح مقلد الغنمي: الإسلام والتجانس الاجتماعي في إفريقيا، مجلة دراسات افريقية، العدد 45، مدريد 1985.
- 19- عبد الرحمن عمر المالح: الدعوة الإسلامية في إفريقيا، الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989.

**ب- باللغة الأجنبية :**

- 1-Des champs, H :les Religions De l'Afrique Noire ,paris,1945.
- 2- Felix Dubris,Tombouctou la mysterieux, paris ,1887.
- 3-Duboisf , les Caravanes du sud Oranais, paris ,1906.
- 4-Palmer, Islam In West suden, The west coast of Africa. Landon,1978.